1 الفصل

السنوات الأولى

الطفولة في البحرين

وُلِد محمدٌ أكبرُ أولاد عبدالله الزامل عام 1936م من زوجته الثانية، ومع مرور الوقت عهد عبدالله إلى ابنه محمد بمستقبل الشركة العائلية التي أنشأها، وعمل محمد، الذي كان يتَّصف بالإخلاص والتضحية بالنفس والتفاني والثقة العالية بالنفس، بدوره على إدارة الشركة التي عُدَّت دعامة الاستقرار وسبب نجاح عائلة الزامل، ثم ولد عبدالرحمن عام 1940م، وهو الابن الثاني والأخ الشقيق لمحمد، ثم أبصر عبدالعزيز النور من الأم نفسها عام 1942م.

ومع مرور الوقت أصبح لدى الإخوة الثلاثة أخوان شقيقان (أحمد وسليمان) أصغر منهم في السن، في حين أصبحت زوجة عبدالله الأولى أمًّا لحمد، ثم لزامل، وخالد، وأقامت الزوجتان مع أولادهما في بيتين متلاصقين في البحرين، وعندما تزوج عبدالله للمرة الثالثة، اتخذ مسكنًا منفصلًا لزوجته الثالثة في مكان قريب، وأصبحت أم فهد أمًّا لأربعة أولاد: فهد، وأديب، ووليد، وتوفيق، وفي المحصلة يكون عبدالله أبًا لاثني عشر ولدًا: الأربعة الكبار (محمد، وعبدالرحمن، وحمد، وعبدالعزيز)، والأربعة الأوسطون، والأربعة الصغار، وخمس بنات، وهن (لؤلؤة، ومنيرة، وحصة، وبدرية، وفاطمة).

كانت وحدة العائلة قوية، وفق ما يتذكر عبدالرحمن الزامل، وهو أحد أشقاء عبدالعزيز الأكبر سنًّا، فيقول: «لقد تربينا معًا، وعلى الرغم من أننا لسنا من أم واحدة، فقد ربّانا والدي التربية نفسها، فلم يشعرنا بأننا مختلفون بأي وجه»، يوافق عبدالعزيز على ذلك، فيقول:

> تزوج والدي من ثلاث زوجات؛ لذلك أصبح لدي ثلاث أمهات، وقد كنا متوافقين للغاية، وكنا نعيش في بيت كبير على الشاطئ، وكان بيتًا رائعًا، يطل على الواجهة البحرية، وفي وقت لاحق دُفِن البحر الذي أمام بيتنا، وأقيمت عليه مبانٍ حكومية وحَيٌّ دبلوماسيٌّ، وفي ذلك الوقت كنا نعيش في سعادة؛ لقرب البحر منا، وكنا نمضي الوقت مع العائلات البحرينية والعائلات السعودية التي قدمت من السعودية؛ لتستقر هنا.

بذل عبدالله الزامل جهدًا كبيرًا لضمان أن يتعامل أولاده، المولودون لأمهات مختلفات، بعضهم مع بعض معاملة الأسرة الواحدة، فكانوا يلعبون معًا، ويذهبون إلى المدرسة نفسها، ويقضون الإجازة معًا. كان أولاده الأربعة الكبار متقاربين في السن؛ إذ ولدوا في غضون ست سنوات، وفي سنوات لاحقة توسعت الأعمال التجارية لعائلة الزامل، وبقي الأشقاء قريبين من بعضهم، إذ كان يعيش بعضهم في البحرين، وبعضهم الآخر في شرقي المملكة العربية السعودية وفي الرياض، (عام 1965م عاشت الأسرة مأساة فقدان شقيقتهم منيرة في حادثة سيارة) في طريق الرياض - الدمام القديم.

وفي البحرين درس عبدالعزيز في مدرسة ابتدائية تدعى (المدرسة الغربية)، وهناك تعلَّم قراءة القرآن والكتابة، إضافة إلى تعلُّم مختلف أنواع العلوم والفنون، وكان نحو 70% من طلبة المدرسة من الطائفة الشيعية؛ نظرًا إلى قربها من الأحياء الشيعية، و30% من السنة. وكما يقول عبدالعزيز: «تعايش الطلاب مع بعضهم تعايشًا رائعًا، ولم يشعروا قط بالاختلاف»، وكان نظام التعليم في البحرين يتكوَّن من تسع سنوات في المرحلة الابتدائية، وأربع سنوات في المرحلة الثانوية.

كان غازي القصيبي، المولود عام 1940م لإحدى أغنى العائلات في المملكة العربية السعودية، التي تعود جذورها إلى منطقة نجد، قد تلقَّى أيضًا تعليمه الابتدائي في البحرين، وكان والده رجل أعمال يعمل في مجال تجارة اللؤلؤ، وكان يُعدّ ممثلًا للمملكة العربية السعودية في البحرين؛ فقد كان يصدر جوازات السفر، وتولَّى منصب ممثل الملك عبدالعزيز بن سعود في البحرين.

وكما هو الحال مع عبدالعزيز، قضى غازي طفولته وصباه في البحرين، ومن ذكرياته التي يصف لنا فيها يومًا نموذجيًّا في المدرسة الابتدائية قوله: كان الدوام يبدأ الساعة السابعة صباحًا، وينتهي الساعة الرابعة عصرًا، وكان الطلاب يذهبون إلى بيوتهم في وقت الغداء، ولكنهم كانوا «يستعجلون العودة قبل انتهاء وقت الاستراحة». وكان الطلاب يُقسَّمون إلى أربع مجموعات، بحيث تسمَّى كل منها باسم شخصية إسلامية مشهورة، وكانت المنافسة بين المجموعات شديدة جدًّا، وكانت النوادي

والجمعيات تشتمل على جمعية للغة العربية، وكانت السنة الدراسية تختتم بمسرحية. يتذكر القصيبي ذلك قائلًا:

في تلك الأيام كان المدير هو من ينفذ العقوبة، وكان إذا أُرسل تلميذ إليه، فإنه أمر حتمي أن يتعرَّض للضرب على يده بالعصا، مرَّتين على الأقل، وقد تصل إلى عشر مرات أحيانًا، ولم أسمع قط يومًا أن طالبًا قد أرسل إلى المدير؛ كي يتلقى جائزة أو مديحًا. كانت العلاقة بين المدير والطلاب مبنية على الخوف والترهيب فقط.

وكان للعريف دور مهم لا يتجزأ عن آلية التأديب في المدرسة، وكان من المعتاد أن يختار المعلم أحد أفضل الطلاب في الفصل؛ ليكون عريفًا خلال الدرس، ويا له من شيء رائع أن تكون عريفًا! لقد كان يكتب أسماء المشاكسين على السبورة. يا لها من سلطة! ويبقى العريف في مأمن من الانتقام ما بقي في الفصل.

تدرَّج عبدالعزيز في المراحل الابتدائية والوسطى، وبسبب انخفاض معدل عدد الأشخاص المتعلمين (70% من السعوديين غير متعلمين عام 1953م)، انضم إلى النخبة، وزودته الحياة في البحرين بآفاق واسعة عن العالم.

وفي هذه الأثناء، وبفضل خبرة عبدالله الزامل في مجال بناء العقارات في البحرين، أسس مشروعًا في الخبر لبيع مواد البناء، في الجزء الشرقي من المملكة العربية السعودية، وفي أسلوب المشروعات النموذجية أسس مشروعه الجديد مصادفة، وفي ذلك يتذكر عبدالعزيز بقوله:

عام 1953م استورد والدي حمولة حديد موادً للبناء، غير مدرك أنه في حاجة إلى معالجتها، وكانت الحمولة ضخمة، وهو ما كلّفه أموالًا طائلة، ولم يكن بمقدوره أن يبيعها كما كانت؛ لذلك استورد الأدوات اللازمة لتجهيز القضبان ومعالجتها، فأقحمته هذه التجربة في مجال جديد عن طريق المصادفة، وانتهى به الأمر إلى بناء أول مصنع لتعديل الصلب وقصّه في المملكة.

وعلى مر السنين، أصبح عبدالله عضوًا مرموقًا في مجال إدارة الأعمال في الخبر والبحرين، وكان يدير وقته بانتظام؛ بين زيارة عائلته في البحرين، والعمل في المملكة العربية السعودية، ويتذكر عبدالعزيز كيف كان يتنقَّل والده ذهابًا وإيابًا بين

البحرين والساحل الشرقي باستخدام القارب، وكانت الرحلة تستغرق ثلاث ساعات، ثم في خمسينيات القرن العشرين بدأ والده يسافر بالطائرة، أحيانًا.

تدريجيًّا أصبح عبدالعزيز يدرك حجم النشاط التجاري الذي يمتلكه والده: «كنا ندرس من السبت إلى الخميس، وكانت المدرسة تغلق يوم الجمعة، ولكن كانت الأسواق والمحالّ في البحرين تفتح صباحًا؛ لهذا كنا نذهب إلى متجر والدي، وكانت البحرين في ذاك الوقت أكثر انفتاحًا، فقد كان هناك دور للسينما والمقاهي».

وكان من أبرز الأحداث التي أشار إليها عبدالعزيز رحلةُ الملك سعود إلى البحرين بعد توليه الحكم بمدة قصيرة عام 1953م، وفي ذاك الوقت زار عبدالعزيز وإخوته المملكة العربية السعودية للمرة الأولى.

> ذهبنا إلى المملكة عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، وزرنا مدينتي الخبر والهفوف، وكانت جداول الماء ما زالت تتدفق في ذلك الوقت في عيون الهفوف، وقد أمضينا وقتًا رائعًا. كانت الخبر صغيرة جدًّا؛ كان فيها شارع رئيس واحد، وبعض المباني التي شيدتها (شركة أرامكو)، وأيضًا أكواخ صغيرة يسكنها الناس، وحينها كان من الطبيعي العيش في أكواخ، ولقد تغيرت المدينة كثيرًا في غضون خمس سنوات، فقد كنت صغيرًا عن أن ألحظ ذلك التغيير، ولكن لاحظت مدى كبر مساحة البلد، عندما ركبنا القطار للذهاب إلى الهفوف ثم إلى الرياض.
>
> كانت الطرق التي تربط الرياض بعنيزة غير معبدة، وكانت الرحلة تستغرق 30 ساعة للوصول إلى هناك! كانت عنيزة في طور الازدهار؛ فقد احتوت على مصادر للمياه، وكانت مشابهة للبحرين في بعض النواحي؛ لأن أشخاصًا كثيرين كانوا يسافرون إلى لبنان والعراق والهند، ويعودون بأفكار جديدة، وكانت أكثر انفتاحًا من الرياض، وكانت العائلات منفتحة على التغيير والتطوُّر، ولم أكن أعي حينها أن المملكة كانت على وشك التغيُّر، وهذا ما أدركه عند النظر إلى الماضي.

تدريجيًّا أصبح عبدالعزيز يدرك أوجه التباين بين الحياة في المملكة العربية السعودية والحياة في البحرين.

كان المجتمع البحريني منفتحًا؛ إذ إنه تكوَّن من عدد من الجنسيات والمعتقدات المختلفة؛ ذلك أن البحرين كانت مركز تجارة وشحن رئيسًا، وعندما عدت إلى البحرين لاحظت وجود كثير من الأجانب هناك؛ من الغربيين والهنود، وكان فيها المدارس، ودور السينما، والمقاهي، وجميع هذه لم تكن موجودة في المملكة العربية السعودية، وفي البحرين ارتدت النساء الحجاب، وكانوا تقليديين؛ فلم تقد النساء السيارات، ولكنهن كنّ يذهبن إلى المدارس، ولم يكن الحال هكذا في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية، وقد كانت شقيقاتي محظوظات لوجودهن في البحرين.

نشأ عبدالعزيز مدركًا أصوله السعودية، فكان لديه أصدقاء سعوديون وبحرينيون، وكانت عائلة الزامل على علاقة وثيقة مع كثير من البحرينيين، وكان والده خصوصًا على اتصال مع كثير من الأشخاص:

كان شخصًا اجتماعيًّا مع عائلته ومع أصدقائه أيضًا، وكان كالجسر بين السعوديين والبحرينيين؛ سواء اجتماعيًّا أم مهنيًّا، وفي ذاك الوقت كان في البحرين عدد من الأشخاص من الجالية الهندية ومن جاليات عدة أخرى، وكان يسهل عليه التعامل مع الجميع.

أطول عمارة في مدينة الخبر

في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ركَّز عبدالله الزامل جلَّ اهتمامه على فرص العمل المتوافرة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وسافر إلى هناك أكثر من مرة، وقضى فيها أوقاتًا طويلة، وقد اكتُشِف النفط هناك عام 1938م من قِبَل شركة ستاندرد أويل كاليفورنيا - العربية، في البئر رقم 7 في التكوين الجيولوجي المعروف باسم (قبة الدمام)، بالقرب من الظهران، وكانت عمليات استكشاف النفط وإنتاجه قد عُلِّقت في حقبة الحرب العالمية الثانية؛ تخوفًا من وقوع المنطقة تحت سيطرة قوات حلف المحور، ولكن سنوات ما بعد الحرب شهدت طفرة كبرى في عمليات الاستكشاف، وفي تلك الأثناء أُنشئت مصفاة رأس تنورة، وخط أنابيب من الخبر إلى البحرين، وخطوط الأنابيب على امتداد البلاد العربية، وعام

1952م نقلت شركة النفط الأمريكية العربية (أرامكو) (ستاندرد أويل كاليفورنيا - العربية سابقًا) مقرها الرئيس من نيويورك إلى الظهران، ومع هذه التطورات، وازدياد الإنتاج النفطي، وتدفق الناس على المنطقة الشرقية، تعزَّز الازدهار، وزادت الفرص الاستثمارية لعبدالله الزامل.

ففي بداية الأمر وفَّرت (أرامكو) منازل لسكن العاملين في قطاع النفط السعودي بالقرب من حقول النفط، ولكن تطوُّر هذه الصناعة وازدهارها بعد الحرب العالمية الثانية جذب كثيرًا من الخبراء الأجانب، وازداد الطلب على العقارات التجارية والسكنية في مدينة الخبر، ثم في ضواحي مدينة الدمام، ورأى عبدالله الفرص مواتية لتحقيق مكاسب طائلة، وكان هناك ما يستحق المغامرة من أجله، وعلى الرغم من عدم وضوح الرؤية للنجاح في القطاع العقاري في هذه المرحلة، فإنه لم يكن من الرجال المترددين؛ فاقترض كثيرًا من المال لبناء ما يمكن أن يصبح أطول برج في الخبر، ويقول عبدالعزيز عن ذلك:

> كان والدي من أوائل المستثمرين في الخبر؛ إذ اشترى الأرض، وانطلق بخطوة غير مسبوقة؛ فأشرك مهندسًا معماريًّا دوليًّا لتصميم ما سيصبح أكبر عمارة للشقق والمكاتب في المنطقة الشرقية، تكونت من سبعة طوابق وثمانٍ وأربعين شقة، وكان ذلك في وقت لم يكن هناك طلب كبير على الشقق السكنية، وكان الجميع يدرك أن بناء مبنى كبير كهذا فيه نوع من المغامرة، ويتساءلون: «من أين سيأتيه المستأجرون؟».

تلقَّى عبدالله الزامل مكافأة مثابرته وبعد نظره وطموحه بأن ضمن تأجير المبنى بالكامل فور الانتهاء من تشييده عام 1959م، ووفق ما يتذكر عبدالعزيز:

> لقد كانت توقعات والدي صحيحة؛ فمع توسع أرامكو، ونمو اقتصادها المحلي، أصبح الناس يتوافدون من جميع الأنحاء؛ من لبنان وسوريا والأردن، ومن بلدان غربية، وكانوا محاسِبين ومهندسين ومصرفيين وخبراء في مجالات أخرى، وعلى الرغم من وجود عدد من مجمعات السكن للغربيين، سعت بعض الشركات إلى استئجار وحدات سكنية لموظفيها، ولأن المبنى الذي بناه والدي كان جيد التصميم، ويقع قرب البحر، فقد تمكن من تأجير كل الشقق في المبنى، وأصبح هذا المبنى أحد الأسس التي قامت عليها شركتنا العائلية.

رحلات مرحلة المراهقة المبكرة

على الرغم من الحيِّز الكبير الذي كانت تشغله الأنشطة التجارية في حياة عبدالله الزامل، فقد أدرك أهمية الترفيه، وأراد أن يدخل عائلته في العالم الأوسع، ومن ثم، ففي مطلع خمسينيات القرن العشرين بدأت عائلته تقضي إجازاتها خارج السعودية، وفي كثير من الأحيان كانوا يستقلون الطائرة أو القطار، وأصبحت جبال لبنان التي تبعد عن بيروت قرابة ساعة، المكان المفضل للعائلة لقضاء إجازاتها، ويتذكر عبدالعزيز ذلك، فيقول:

> كان والدي يأخذ كل سنة عائلة واحدة للإجازة، ولكن أولاده الكبار الأربعة كانوا يرافقونه دائمًا في جميع رحلاته لمساعدته، وعندما كنا نذهب إلى لبنان لقضاء الإجازة، كنا نحصل على ليرة لبنانية واحدة كل يوم مصروفًا شخصيًا.
>
> كنا نُعدّ عائلة متوسطة الحال، وكنا من أوائل العائلات التي امتلكت سيارة في البحرين، ولم تكن رحلتنا السنوية إلى لبنان أمرًا متاحًا للجميع، ولم نكن نملك حسابات ضخمة في المصارف، ومعظم استثمارات والدي كانت في القطاع العقاري، وهو ما تطلب كثيرًا من الاستثمارات الثابتة.

زار عبدالله الزامل مع أولاده بلدانًا عربية عدة أخرى، ومن ضمنها سوريا، والعراق، ومصر، وقد كانت هذه البلاد مختلفة تمامًا في ذلك الوقت، وكانت العراق عام 1958م قبل الإطاحة بالملكية بلدًا منظمًا للغاية، أما سوريا فكانت قبل انقلاب البعث مزدهرة، ووفق ما يتذكر عبدالعزيز يقول:

> كنا نذهب إلى سوريا ومصر في الصيف مع والدي ووالدتي قبل ذهابنا إلى بيروت، وفي إحدى العطلات سافرنا إلى سوريا والعراق؛ فزرنا أقاربنا في البصرة، ثم ركبنا القطار إلى بغداد، وقد انطلقنا إلى بغداد من البصرة في المساء، فوصلنا في الصباح، وقبل وصولنا توقفنا في مدينة الحلة المشهورة آنذاك بجميع أنواع منتجات الألبان التي تقدَّم على الإفطار، والتي كانت تباع على رصيف محطة القطار.
>
> قضينا وقتًا رائعًا في مدينة بغداد، وكانت الأمور تسير على ما يرام أيام الحكم الملكي في العراق، ثم ركبنا حافلة، وتوجهنا من بغداد إلى دمشق، حيث قضينا هناك بضعة

أيام، وكانت دمشق مزدهرة، فاشترينا الهدايا، ثم ذهبنا إلى لبنان؛ لقضاء فصل الصيف في منطقة الجبال التي تبعد ساعتين، وكنا نذهب مع والدي إلى بيروت من وقت لآخر في زيارة عمل، ولكن لم نكن نمكث هناك أوقاتًا طويلة.

وسرعان ما هبَّت رياح التغيير الهادئ في البحرين، إذ عمل تشارلز بلجريف مستشارًا شخصيًّا للشيخ سلمان، وأصبح يعرف بلقب (المستشار) على مر السنين، وقد ساعد على تأسيس نظام المحاكم المدنية والجنائية وجهاز الشرطة، وتوسيع نطاق الاستفادة من التعليم. ولكن عام 1956م تحوَّلت الأوضاع ضده؛ نتيجة رد الفعل على الاحتلال البريطاني لقناة السويس، إذ نفَّذ شعب البحرين إضرابًا عامًّا، وقامت دعوات تدعو لعزل بلجريف، وهاجم البحرينيون سيارة وزير الخارجية البريطاني، سلوين لويد، واندلعت أعمال شغب، وقد رفض الشيخ سلمان تنحية بلجريف تمامًا، ولكن خُفِّضت صلاحياته، ثم خرج نهائيًّا من البحرين عام 1957م.

يقول عبدالعزيز: «كان الشخص المسؤول في البحرين، تشارلز بلجريف، شخصًا طيبًا، وكان متعاطفًا مع البحرينيين، ومع أنه حقًّا كان يهتم بالبحرين، وحاول تطويرها قدر الإمكان، فإنه في النهاية كان خادمًا للإمبراطورية البريطانية».

وخلال أزمة قناة السويس (السنوات المضطربة) أصبح عبدالعزيز مدركًا (الأشياء الفظيعة التي تحدث): «كانت هناك مظاهرات ضد البريطانيين، وحين جاء سلوين لويد هوجم بالبَيض، ولم يكن والدنا يسمح لنا بالخروج من البيت، ومع ذلك شارك أخي الأكبر في إحدى المظاهرات، وحُبِس ليلة واحدة».

وفي تلك الأثناء شجَّع عبدالله الزامل أولاده على إكمال تعليمهم، فيقول عبدالرحمن في هذا الشأن: «لم يكن والدي على درجة عالية من التعليم؛ لهذا شعر بأهمية التعليم بشدة»، ويضرب عبدالله أمثالًا مهمةً على ذلك، فوفق ما يقول عبدالعزيز:

لقد أدرك والدي أهمية التعليم، وكان يُعدّ - وفق معايير ذلك الوقت - متعلمًا فقط؛ لأنه يعرف القراءة والكتابة، ولقد اهتم والدي بتعليم الناس عند عودته لعنيزة، وفي كل مرة كان يذهب فيها كان يأخذ اللوازم المدرسية، ويتبرع بها للمدارس هناك.

وفي البحرين، كان عبدالعزيز يذهب إلى المدرسة الثانوية مع غازي القصيبي، الذي كان له دور مهم في حياته فيما بعد، فقد كان غازي القصيبي يكبره بثلاث سنوات «كان في سنة التخرج، وكنت في السنة الأولى»، وكان «طويلًا ونحيلًا»، وكان أحد رفاقه المقربين في ذلك الوقت طارق المؤيد، زميله الذي أصبح لاحقًا وزيرًا للإعلام في البحرين، وكان من أصدقائه أيضًا فاروق المؤيد ومحمد جابر الأنصاري؛ «طالب جيد» تفوَّق في مجال الأدب العربي، وأصبح فيما بعد مستشارًا للملك.

يتذكر عبدالعزيز مدرسته الثانوية: «معظم المدرسين كانوا سوريين أو مصريين، وبعضهم كانوا من البحرين من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان معظم المنهاج المدرسي مشابهًا للمنهاج المصري. ركَّزنا في دراستنا على الأدب العربي، والشعر، والعلوم، ولم تحظَ اللغة الإنجليزية إلا بقليل من الاهتمام، ولم يكن الضرب مسموحًا به إلا في حالات نادرة، وأصبح وقت الدوام في المدرسة الثانوية أقصر من وقت دوام المدرسة الابتدائية، فيتذكَّر القصيبي ذلك قائلًا:

في المدرسة الثانوية كنت مدركًا جميع أنواع الفساد الإداري، وقد لاحظت اختلاف تعامل المدرسين مع الطلاب وفقًا لحالتهم الاجتماعية، وليس لأدائهم الأكاديمي، ولاحظت أيضًا كيف أصبحت الدروس الخصوصية مصدر دخل لبعض المدرسين، وذلك على حساب جودة التعليم المدرسي.

وكان عبدالعزيز من جانبه ينجح في صفوفه، وكان طالبًا نشيطًا ومتمكنًا، وكرّس وقته وجهده لدراسته، ومع أنه كان يهتم بالرياضيات والكيمياء، ولكن حبَّه الأول كان للرياضة والأنشطة الخارجية.

لم أتفوق في رياضة كرة القدم مثل أخي الأكبر، الذي تمكن من الانضمام إلى أحد الأندية الرياضية، ولكننا كنا نلعب بالقرب من منزلنا في الشارع، وكنت أركب الدراجة الهوائية، وأمارس رياضة السباحة، ولعبنا كرة الطائرة، ولكن لم يكن لدينا

فريق قوي، وكنت أحب الكشافة والمشي مسافاتٍ طويلة، وكنت نشيطًا، وكان لدي أصدقاء كثيرون من طبقات المجتمع كافة.

قرَّر أبناء عبدالله الزامل الكبار الدراسة في مصر بعد إنهاء تعليمهم الثانوي، ويتحدَّث عبدالعزيز عن ذلك قائلًا: «هذا يعني أنه لا بد من دراسة سنة إضافية، وقد درسناها في الكويت». كان على كل ولد أن يختار مجال دراسته من بين إدارة الأعمال، أو الدراسات الاجتماعية، أو العلوم، «فتَخصَّص أخي الأكبر محمد في إدارة الأعمال، واختار عبدالرحمن الدراسات الاجتماعية؛ لأنه أراد دراسة القانون، وركزت أنا على العلوم؛ لأنني كنت أريد دراسة الطب».

بعد انتهاء عبدالله الزامل من بناء مجمعه الرائع في الخبر عام 1959م، أعدَّ خطة مغايرة لمستقبل ابنه الأكبر محمد، فعلى الرغم من تنوُّع الأنشطة التي كان يمارسها عبدالله الزامل، فإنه كان لديه أقل من عشرة موظفين، كان أحدهم قريبًا له في البحرين، ويتحدث عبدالرحمن عن ذلك مستذكرًا:

عندما كنا نفكر في أمر ذهابنا إلى الجامعة طلب والدي من أخي محمد البقاء معه: «أرجوك ابقَ إلى أن يكمل إخوتك تعليمهم الجامعي»؛ إذ كانت تدور في عقل والدي فكرة؛ ذلك أنه كان في الستينيات من عمره، وفي تلك الأيام كان هذا هو متوسط العمر المتوقع في المملكة العربية السعودية، وكانت لديه مشكلات في الكليتين.

وقال: «محمد، أريدك أن تكون الجسر، أريدك أن تدير الشركة العائلية معي، فتعلَّم التجارة، واطَّلعْ على التعامل مع المصرفيين، وافهمِ الشؤون المالية وأمور العملاء؛ فبهذه الطريقة سيثقون بك، وأنت تعمل معي».

قَبِل أخي البقاء مع والدي، وانتقل إلى المملكة العربية السعودية لإدارة مشروعات والدي الاستثمارية في الخبر؛ فقد أراد والدي أن يكون أحد أولاده مساعدًا له في إدارة الشركة، وشجعنا نحن الباقين على إكمال دراستنا.

فحين أوقف محمد نفسه على تعلُّم التجارة وقيادة الشركة العائلية، كان له - خلال سنوات قليلة - دور حاسم في إدارة الشركة العائلية في مرحلة حرجة.

خيبات الأمل في القاهرة

كان لمصر دور بارز في تحديث المملكة العربية السعودية؛ فقد زوَّدتها بالأطباء والمدرسين وغيرهم من المهنيين، وفي مطلع خمسينيات القرن العشرين كان الشباب السعوديون يذهبون إلى مصر؛ لإكمال دراساتهم العليا، وفي أعقاب هزيمة العرب عام 1948م على يد إسرائيل، وصعود القومية العربية، أصبح الطريق سالكًا لتحوُّل سياسي كبير في منطقة الشرق الأوسط، كان من شأنه تهديد النظام الملكي السعودي واستقرار البلد، وكانت أولى بوادر الاضطرابات الإطاحة بملك مصر فاروق عام 1952م، التي دُبِّرت من قِبَل جماعة جمال عبدالناصر الذي أصبح رئيسًا للبلاد عام 1956م.

بقيت العلاقات السعودية - المصرية جيدة بعد الإطاحة بالملك فاروق، ودعم الملك سعود، الذي خلف والده العاهل السعودي في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 1953م، بعد تأميم عبدالناصر لقناة السويس عام 1956م، دعاه الملك سعود لزيارة المملكة العربية السعودية، حيث استُقبِل الزعيم المصري استقبالًا جماهيريًّا حاشدًا، وفي عام 1957م زار الملك سعود الولايات المتحدة، وقدَّم دعمه لما سُمّي (مبدأ إيزنهاور)، الذي رمى إلى إبعاد الاتحاد السوفييتي عن منطقة الشرق الأوسط، وكانت سوريا ومصر قد عارضتا هذا الموقف.

وعلى الرغم من تراجع العلاقات بين البلدين، فقد ذهب عبدالرحمن الزامل - الابن الثاني لعبدالله الزامل - وعبدالعزيز، مثل كثير من السعوديين، عام 1959م، للدراسة في القاهرة، و«كان أبعد مكان عن منزلنا ذهبنا إليه وحدنا»، كما يتذكر عبدالعزيز، ويتابع: «لقد كانت القاهرة مدينة كبيرة، والجامعة مكتظة جدًّا، فهناك عدد كبير من الطلاب أرادوا أن يلتحقوا بالدراسة هناك».

وحصل عبدالرحمن على مقعد لدراسة القانون، ولكن عبدالعزيز كان أقل حظًّا، إذ تقدَّم بطلب للالتحاق بكلية الطب في جامعة القاهرة؛ آملًا أن يبدأ الدراسة فيها في الخريف، ويتخرَّج طبيبًا، و«كنت أتبع طموحي، ولكن معدّلي التراكمي لم يكن

كافيًا، فلم أُقبَل، فقد كان عدد المتقدمين كبيرًا؛ لذلك حدَّدت الجامعة حدًّا أدنى مرتفعًا جدًّا للقبول».

في حين بدأ عبدالرحمن مسيرته الدراسية لرسم مستقبل مشرق، تحطمت آمال أخيه الأصغر، ويتذكر عبدالعزيز ذلك، فيقول: «لقد خيَّروني ما بين الالتحاق بكلية الزراعة أو كلية إدارة الأعمال، فاخترت كلية إدارة الأعمال في جامعة القاهرة، ولكن لم أكن مرتاحًا لهذا الخيار، ولم أحبه»، وبعد مرور أشهر عدة، قرَّر عبدالعزيز عدم الاستمرار في دراسة تخصصه.

التعرُّف إلى إنجلترا

افتتحت المملكة العربية السعودية أول جامعة (جامعة الملك سعود) عام 1957م، ولكن كليات العلوم، وإدارة الأعمال، والصيدلة، فيها كانت في طور التأسيس، وعلى الرغم من أن العلاقات بين السعودية والولايات المتحدة كانت في طور التعزيز، لم يتطلَّع عبدالعزيز - في سعيه إلى تحقيق الخطوة المقبلة من تعليمه - للدراسة في بلده أو في الولايات المتحدة، بل في بريطانيا العظمى، البلد الذي كانت له علاقة طويلة مع شبه الجزيرة العربية (البحرين، بلد عبدالعزيز الثاني، بقيت تحت حماية بريطانيا العظمى حتى عام 1971م). واستنادًا إلى عبدالعزيز «صُمّم النظام التعليمي في البحرين على نمط النظام التعليمي في بريطانيا».

كان عدد من أصدقائه البحرينيين قد ذهبوا للدراسة في بريطانيا، وقد أرسلوا له رسائل مشجعة كثيرًا عن تجربتهم، فسأل عبدالعزيز أباه عن إمكان أن يدرس في بريطانيا؟

> لقد تردد والدي في البداية، ولكنه وافق في نهاية الأمر: «حسنًا، إذا كنت تشعر أن بمقدورك أن تنجح». سألت قبل أن أسافر، ومن خلال الأقارب في البحرين، عرفنا رجلًا يدعى السيد جاكسون، وهو المستشار الذي يدير مكتبًا يُعنَى بالطلاب السعوديين والبحرينيين، وقد ساعدنا كثيرًا بفضل خبرته.

غادرت في شهر ديسمبر/ كانون الأول من عام 1959م جوًّا على متن رحلة لطيران كانتاس الأسترالية، واستغرقت الرحلة سبع ساعات من القاهرة إلى لندن، وكانت تلك أول مرة أشعر فيها حقًّا بأني بعيد عن موطني. كان الجو باردًا وممطرًا، عندما هبطت الطائرة، وكان في استقبالي السيد جاكسون في المطار، وكانت حينها احتفالات أعياد الميلاد، والمدارس مغلقة حتى منتصف يناير / كانون الثاني، فاستضافني السيد جاكسون مدة قبل أن يجد لي مكانًا لأدرس فيه.

وكان الاتفاق أن يستعد عبدالعزيز لامتحان المستوى الأول في اللغة الإنجليزية في كلية تقنية في سالزبري، ويلتشر. يتذكر عن هذا الشأن، قائلًا:

كانت بلدة جميلة، أصغر من القاهرة، ولكنها كانت رائعة، وكنت الطالب السعودي الوحيد هناك؛ لأن السيد جاكسون أراد أن يضعني في سكن ليس فيه كثير من ناطقي اللغة العربية (كان هناك طالبان كويتيان، ولكن لم أرَهما كثيرًا)، كان على علم أنه يجب أن أدرس ثماني مواد مختلفة، وقد أراد أيضًا أن أحسن لغتي الإنجليزية، وتابع تقدمي في الدراسة، وتصرف معي تصرُّف الأب.

عرَّفني السيد جاكسون بالكلية وبالعائلة الإنجليزية التي سأقيم معها، وكان والدي يحوِّل مبلغ 15 باوندًا كل شهر للسيد جاكسون بوصفه مصروفًا شخصيًّا لي، وكان هذا كافيًا؛ لأنني أعيش مع عائلة إنجليزية، وكل مصروفاتي كانت تُدفع، حتى مصاريف الطعام من قِبَل والدي.

كانت هناك ثلاث حصص لغة إنجليزية إضافية في الأسبوع، وكانت هذه بداية صداقة رائعة مع السيد جرانت، وهو أستاذ في اللغة الإنجليزية، وكان دائمًا ينصحني بقراءة الصحيفة اليومية، فقلت له: «لا أستطيع أن أفهمها»، فقال لي: «لا تقلق؛ فقط اقرأ، فأول أسبوع والثاني سيكون الوضع صعبًا، ولكنك ستبدأ تفهم تدريجيًّا»، وكان هذا صحيحًا، وساعدني كثيرًا، وكان يعطيني الصحيفة عندما ينتهي من قراءتها، فأقرؤها، وذلك ساعدني حقًّا.

كان من الصعب على عبدالعزيز في البداية التكيُّف مع حياته الجديدة بعيدًا عن بيته، وكان قليلًا ما يسافر إلى لندن، وأصبحت دروسه الفردية مع معلمه تشغل معظم أيام الأسبوع.

وفي بداية أول شهرين كنت أشعر بالحنين إلى بلدي الأم، ثم وجدت نفسي أتطلع بشوق لدروس اللغة الإنجليزية مع مدرسي الخاص السيد جرانت، فلم أستطع التكيف بسهولة؛ لقد شعرت بالغربة، وفي ذلك الوقت لم يكن هناك كثير من الطلاب العرب، ولهذا السبب تعلمت اللغة الإنجليزية بسرعة.

أكمل عبدالعزيز سنته الدراسية في سالزبري عام 1960م، وحصل على القبول لتسجيله في كلية كونكورد، وكانت كلية دولية مقرها في تونبريدج ويلز، وهناك بدأ دراسته للامتحانات المتقدمة التي كانت تُعدّ من أهم المتطلبات لدخول الجامعة، وركز في دراسته على العلوم والرياضيات والأحياء؛ آملًا أن يلتحق بكلية الطب.

كان مدير الكلية رجلًا فرنسيًّا، وكان هو وزوجته الإنجليزية - معلمة رياضيات - يهتمان بالشؤون الأكاديمية للكلية؛ ولكن يتذكر عبدالعزيز جيدًا السيدة الستينية تايلر التي «اهتمت بالإيتيكيت والأمور الاجتماعية، فقد كانت تحاول تعليمنا كيفية أداء الأمور بالطريقة الصحيحة». وساعدت الطلاب على التكيف مع الثقافة البريطانية، وكانت تحرص على أن ينجزوا أعمالهم بالطريقة الصحيحة وباجتهاد، ويتذكر عبدالعزيز الزامل ذلك بقوله:

ذهبنا إلى قاعة الطعام لتناول الدجاج مع الأرز، وكنت جالسًا هناك أتمتع بطعم الدجاج، وأتناوله بيدي، وفي الناحية الأخرى كان صديق يفعل مثلي، وفجأة قال صديقي: «عزيز، إن السيدة تايلر قادمة خلفك».

ربتت على كتفي، فقلت: «نعم، سيدتي؟»، سيد الزامل، أنا أعلم أن الملكة فيكتوريا كانت تتناول الدجاج باستعمال يديها، ولكنها كانت تستخدم يدًا واحدة فقط، لا الاثنتين. ابتسمت، وقلت: «حسنًا، أنا لم أعلم بأمر الملكة فيكتوريا، ولكنني أستمتع بطعم الدجاج أكثر عندما أتناوله بكلتا يديّ»، يومها حاول صديقي جاهدًا أن يكتم ضحكته.

كانت الكلية تحتوي على 120 طالبًا من الذكور فقط، معظمهم يطمحون إلى الدراسة في جامعات إنجليزية. سكن عبدالعزيز في نزل مع أصدقاء من السعودية والبحرين والعراق؛ وكان من الطلاب السعوديين طارق المؤيد وفاروق المؤيد، وكانت صداقة عبدالعزيز متينة مع طارق، الذي أصبح وزيرًا في حكومة البحرين،

«تميز طارق بشخصية مميزة وفريدة من نوعها، ولطالما توقعت أنه سيشغل منصبًا كبيرًا، ولكن في تلك المرحلة لم نكن نفكر، أو نهتم بأمر الوظائف؛ كنا في انشغال تام بدراستنا»، ويتذكر عبدالعزيز أنه استطاع تكوين صداقات عدة خلال هذا الوقت في كونكورد:

ما زلت على تواصل مع كثير من السعوديين والبحرينيين الذين التقيتهم في تلك المرحلة، وأيضًا مع كثير من الأصدقاء من الوطن العربي، مثل العراق والكويت، وأصبحت مهتمًا أكثر بالأحداث التي كانت تحدث في الشرق الأوسط؛ فعندما تعيش خارج بلدك، تصبح مهتمًا أكثر بكل ما يحدث داخله.

إن الوقت الذي قضاه عبدالعزيز في بريطانيا أثبت استعدادهالجيد لمستقبل مختلف جدًا عما تخيله.

أحداث عائلية مؤثرة

أرسل عبدالله الزامل، وهو في بداية الستينيات من عمره، رسائل إلى عبدالعزيز على نحو منتظم؛ حرصًا على إخباره بكل جديد، وفي ربيع عام 1962م، عندما كان عبدالعزيز يستعد لتقديم اختباراته (المستوى المتقدم) نُقِل والده إلى مستشفى في ألمانيا ليجري عملية في المرارة، وغادر عبدالله برفقة ابنه الكبير محمد إلى هامبورغ، ولم تُجرَ العملية على نحو جيد، فقد عانى عبدالله آثارًا سلبية لتلك العملية؛ لكونه مريضًا بالسكري، وتوفي فجأة، وكان ذلك صدمة كبيرة للعائلة.

حجب محمد خبر وفاة والده عن عبدالعزيز، الذي يقول:

توفي والدي عندما كنت في موسم الاختبارات، وأخبر شقيقي صديقًا لي بوفاة والدي، ولكنه طلب إليه: «لا تخبر عبدالعزيز حتى موعد رجوعه إلى البحرين؛ لأننا لا نريد أن نعكر عليه في مرحلة الاختبارات». وعندما ركبت الطائرة علمت بأمر وفاة والدي، واستقبلني أشقائي عند وصولي البحرين.

اجتمع الأشقاء الاثنا عشر، وفي مقدمتهم محمد - الذي كان في سن السادسة والعشرين - ليناقشوا مصير الشركة العائلية، وبموجب القانون، ترتَّب على الحكومة البحرينية أن تضع يدها على مواريث غير البالغين، وإضافة إلى ذلك ترك عبدالله الزامل وراءه ديونًا، وهذا كان من غير المفاجئ؛ نظرًا لطبيعة الاستثمار في قطاع العقارات، وكان للدائنين الحق في المطالبة بجزء من تركة المتوفى، وكان من الواضح أن الشركة العائلية ستواجه مستقبلًا غامضًا.

ومع ذلك، كان عبدالله الزامل قد نظر إلى الأمور على المدى البعيد، عندما كان شابًا في البحرين، ورأى كيف تتعامل الحكومة بطريقة غير فاعلة مع أموال القاصرين التي تأخذها في عهدتها، ولتجنب حدوث هذه المشكلة مع الورثة من أبنائه، زار عبدالله شيخ البحرين قبل سفره إلى ألمانيا.

كان والدي على علاقة وثيقة بالشيخ سلمان حاكم البحرين، جد الملك الحالي، وقبل ذهابه إلى ألمانيا أخبر والدي الشيخ: «إن معظم أولادي تحت عمر الثمانية عشرة، وإذا حدث لي شيء ما، فلا أريد أن تذهب تركتهم إلى قسم الحكومة الذي يتحكم في ممتلكات القاصرين، وأنا أثق في ابني الكبير لرعاية العائلة، فأرجوك دعه يكون المسؤول عن تركة إخوته». ولقد اتفق جميع أفراد العائلة على استمرار الشركة العائلية وعدم توزيع التركة

> كان لقرار العائلة الحصيف دور مهم جدًا في الحفاظ على تماسكها، واستمرار الشركة العائلية، وكان أخي قادرًا، مع مساعدة أصدقاء والدي، على تهدئة الدائنين، وقال لهم: «لا تقلقوا رجاء؛ سأسدد الدين»، وقال للمقاولين: «يمكنكم الاستمرار في البناء، وسوف أدفع أجرتكم».

كان دائنو عبدالله على ثقة تامة بمحمد، وكانوا يثقون في قدرته على إدارة الشركة، ولم يطالبوه بتسديد الديون، يقول عبدالعزيز: «لاحظ المصرفيون تصرف محمد المتزن؛ إذ لم يكن مسرفًا، ولم يكن يهدر المال، وكان يركِّز كل اهتمامه في الشركة، فعاملوه، وكأن والدنا ما زال حيًّا. بعد وفاة عبدالله، التقى أبناؤه في أثناء الإجازة الصيفية، الشيخ سلمان، وقد رحَّب بنا أشد الترحيب، وأصر على أن نَعدَّه والدًا

آخر، مستطلعًا إن كنّا في حاجة إلى شيء، فقد كان على علاقة وثيقة مع معظم رجال الأعمال السعوديين؛ إضافة إلى أن البحرينيين معروفون بطيبتهم وحبهم للمساعدة وكرمهم في الضيافة».

بعد قرار الإخوة استمرار الشركة العائلية، ناقشوا الخطوات الأخرى، وقُسِّمت التركة بين الأرامل والأطفال، وبحسب الشريعة الإسلامية يحصل الولد على ضعفي ميراث الفتاة، «كثير من العائلات عندما تُورِّث تعطي النساء أموالهن»، يقول عبدالرحمن الزامل: «لكن لم نكن نريد أن نخاطر بأموالهن؛ يجب علينا حماية شقيقاتنا ببقائهن معنا، وكان هذا قرارًا جيدًا».

ووفق ما يتذكر عبدالعزيز: «لم يكن الإرث المالي الذي ورثناه عن والدنا كبيرًا، وإذا قُسِّم على الأبناء السبعة عشر، فلن يتبقى شيء، فاخترنا أن نستثمره، وكان هذا خيارًا جيدًا، فلقد كان المال هو الأساس، إضافة إلى سمعة والدي، واتخذنا قرارًا منذ البداية بعدم تقسيم أي شيء، وإعطاء كل فرد من العائلة راتبًا شهريًّا، وكان هذا القرار قرارًا حاسمًا في تحديد مستقبل نجاح (مجموعة الزامل)، مع توفير الوحدة والقوة للعائلة، عندما تواجه المستقبل، فقد كان من المهم بقاء العائلة».

وأصبحت الشركة بمرور الوقت توفِّر دخلًا منتظمًا للعائلة، واتفق الإخوة على استمرار محمد في تولِّي الأمور، وأن يذهب بقية الإخوة لإكمال دراستهم. «كنّا محظوظين لوجود أخي الأكبر؛ فلقد ضحَّى بتعليمه من أجلنا، حين كنّا نكمل دراستنا».

ويضيف عبدالرحمن:

رابطة العاطفة هي التي أدَّت إلى نجاحنا لنصبح (مجموعة الزامل)، والعامل الأكبر هو تصرف الأكبر سنًّا في العائلة، وبساطة الحياة، واحترام الأكبر سنًّا، والاهتمام بالأصغر سنًّا، وهناك منطق يوافق عليه الجميع في عائلتنا، وهو: الأكبر سنًّا في العائلة هو رب الأسرة، وهذا لا يعطي أي فرصة لأي شخص بأن يقول: «أنا أفضل».

ونحن لا نقول: «أنا لا أسمع لك؛ لأنك صغير»، أو «لا أحترمك؛ لأنك أصغر مني في السن»، فأن تكون ربَّ الأسرة لا يعني أن تتحكم في كل شيء؛ أنت فقط ممثل الأسرة، وهناك واجب اجتماعي كبير يقع على كاهلك؛ وهو رعاية شؤون العائلة، والتأكد أن كل شيء يسير في الطريق الصحيح، وأن الجميع يتصرف بالطريقة الصحيحة.

ليس لدينا في عائلتنا مقولة: «لا تتدخل في حياتي»، فلن يكون مقبولًا أن تذهب إلى أحد الأندية للمقامرة، ولا يمكنك أن تقول لأحد أفراد عائلتك: «هذا الأمر لا يخصك»، لم نتصرف قط في أي يوم تصرفًا غير أخلاقي، كتعاطي المخدرات مثلًا، فسمعة العائلة مهمة بالنسبة إلينا، فمصداقيتك تهم المصرفيين والعملاء، وهناك علاقة واضحة بين القيم الاجتماعية والمصداقية في مجتمعنا.

وهذا انعكاس لتكاتف أفراد الأسرة، فجميعنا مترابطون: الأمهات، والأخوات، والإخوة. لقد تفرقت عائلات عدة لاختلاف التربية بين الأولاد، أو لاختلاف الثقافة بين الأمهات، أما نحن فمكَّننا تكاتف عائلتنا وتوحُّدها من تحمُّل صعوبات الحياة، وساعدتنا أيضًا قيمنا الدينية على تعزيز هذه الصفات الحميدة، فإن حقيقة كوننا عائلة محافظة ساعدنا على الحفاظ على الوحدة.

* * *